ما وراء الحملة ضد الجماهيرية !

د. برهان زريق*

ما من جماعة بشرية ، مهما اختلف تركيبها وشكلها ودرجة تطورها الحضاري ، إلاّ ولها جذر اجتماعي تتخلّق حوله ، وتنسج بمكوكه عرى الاتصال ، وأوصال الالتحام ، وشرايين التفاعل ، وبنى الترابط ، يصدق هذا على مجتمع الطوطم كأبسط شكل من أشكال التجمع الإنساني ، كما يصدق على العشيرة فالقبيلة ، تتويجاً بالدولة كأنضج شكل للتعبير عن الروح الإنسانية .

وهذا الجذر يأخذ تسميات متعددة : الخيال العام ، الوجدان الاجتماعي ، الضمير الجمعي ،الروح العامة ، وغير ذلك .

هذا الضمير هو موئل قيم الأمة ، ومورد أفكارها وذاكرتها التاريخية ، ومنبع إرادتها ونزوعها ، ومصدر آليتها النفسية ، التي تعمّق المشاعر المشتركة ، ومناط آليتها العقلية التي تنسج تصوراتها وموقفها من الوجود .

ولكن ما هو الشأن بالنسبة إلى هذا الجذر الاجتماعي العربي؟ وما هي مصداقيته؟

في الحقيقة لا أحد يشكك في مصداقية هذا الجذر في مظهره الشعبي (المجتمع المدني أو الأهلي) ومدى تضحياته وشموخه ، وتمسكه بكرامة أمته وعزتها ، ورنوه إلى مستقبل زاهر ، كل ذلك رغم محاولات المحاصرة والتهميش .

ولكن ألا يمكن أن يقال أن سوسيولوجيا (علم الاجتماع) اليوم هي سياسة الغد على حد تعبير غوستان بوتول ، تدليلاً على أهمية الجماعة في إفراز الظاهرة السياسية ، وضبط حركتها ، وبمعنى أوضح أن نمو السياسة تابع ونابع من النمو العام للمجتمع؟

لا أحد ينكر ذلك ، وإن كنا ندلل بقول ابن خلدون : إن الملك (السياسة) للعمران (المجتمع) كالصورة للمادة . فالسلطة ، رغم أهمية المجتمع ، تبقى إطار الجماعة ودرقتها ، والقرار المكين الذي تلقى فيه بذور الحياة ، ولا يمكن للحياة أن تزدهر وتتبلور إلاّ في مثل ذلك ، وهذا قانون بيولوجي أكده سبحانه وتعالى ، بالنسبة إلى الإنسان ، بقوله : «ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين» .

إن مجتمعنا العربي يعاني من صنوف المحاصرة ، وأشكال محاولات التهميش والطمس ، حتى التصفية لا سيما من قبل الآلية السياسية في الداخل ، ومن قبل الامبريالية العالمية في الخارج . وقد أخذت هذه المحاصرة شكلاً جهنمياً جديداً ، بعد اختلال توازن الثنائية القطبية بين العملاقين ، وانحصار جميع مظاهر القدرة والطاقة في يد العالم الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة .

ومع أن هذا الانتصار الأخير على المنظومة السوفياتية حديث العهد ، فإن ما يسمونه النظام العالمي الجديد ما فتئ يسدد الضربات إلى رأس الأمة العربية ، ابتداء بأبشع مغامرة للروح البشرية (الاعتداء على العراق) ، ومروراً بتهديد سوريا بالعصا الغليظة بسبب التسلح ، وأخيراً الحملة ضد الجماهيرية العربية الليبية الراهنة .

كيف لا تكون هذه الأمة مطمع الامبريالية ، وهي اللؤلؤة التي تحتضن في جوف أرضها أعظم الثروات في العالم ، وصرحت الولايات المتحدة ، ومن لف حولها ، بأن خطتها العليا ، في نفط العرب .

أجل ، إن العالم الرأسمالي هو وريث المسألة الغربية ، التي تمتد جذورها وذاكرتها التاريخية ووجدانها الجمعي إلى الاحتلال اليوناني ، فالروماني ، فالموقف من الفتح الإسلامي ، فالحروب الصليبية ، ثم الموقف من الدولة العثمانية (الرجل المريض) ، ثم احتلال المغرب العربي ومصر والمشرق العربي ، وتتويجاً بمأساة فلسطين العربية .

هل هذه الأحداث التاريخية الكبرى مبعثرة تحكمها النزعة العارضة والموقف الطارئ ، أم أن هنالك ناظماً يضبطها ، ويشد فرادتها ، ويفرغها في منظومة متكاملة؟

إن لكل حدث آثاره وتفاعلاته التي تتناسب طرداً مع أسبابه ، والسؤال المطروح هو : هل تفاعلات الحملة ضد ليبيا تتناسب مع أسبابها! أم أن المسألة تتعلّق بالضمير الجمعي للعالم الرأسمالي؟ أو كما يقول المثل الشعبي العربي : «ليست المسألة حبة رمانة وإنما القلوب مليانة» إذ القضية أكبر من ذلك بكثير والأسباب بعيدة... بهذه الروح العامة... كيف نقيس هذه المسألة بما يحدث من انتهاكات لشعبنا العربي في فلسطين أمام مرأى ومسمع القيادة المزيّفة للنظام العالمي الجديد؟

يكفينا أن ندلل بما قاله بعض الصحافيين العرب ، تهكماً على قرار محاصرة الشقيقة ليبيا ، بأن الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة خُصص للعرب ، ويكفينا أن نلفت الانتباه إلى قرار هيئة الدفاع عن حقوق الإنسان في باريس ، التي أظهرت تهافت هذا القرار ، وعدم قيامه على أساس من الصحة والمشروعية .

والمسألة الأولى والأخيرة في الموضوع هو ذلك الجهاز المفاهيمي ، الذي أخذ يظهر في الدراسات الحديثة ، والمسمى «الضمير الجمعي» ، فهو موئل كل طاقة ، وأساس كل تصور ، ومنبع كل قرار سياسي .

إن بوش هذا الصانع الأول لقرار المحاصرة ، هو وراء هجرة يهود (الفالاشا) ، وقد أفصح عن سعادته الكبرى في نجاحه بذلك ، عندما كان نائباً للرئيس الأميركي ، وهو نفسه الذي عبّر عن حزنه العميق لأن سوريا عاملت السوريين اليهود كمواطنين من دون أن تسمح لهم بالهجرة إلى «إسرائيل» .

ومن المؤسف حقاً أن كثيراً من الأقطار العربية ــ إلاما عصم ربي ــ يضع زماماً في عنقه ، ثم يدفعه إلى يد بوش ، هذا الكاهن اليهودي ، ليدعه يجره كما يشاء ، والعجب العجاب في هذه الآلية السياسية أنها تحب أميركا كثيراً والعرب قليلاً .

قد تقول هذه الآلية السياسية ــ وقد قالت ذلك على ألسنة معظم وزراء الخارجية العرب ــ أنني جزء من الاجماع الدولي ، وأنا ملزمة بهذا الاجماع ، ولكن السؤال المطروح هو : أليست هذه الآلية ملتزمة الاجتماع العربي؟

نحن لا نقول لهذه الآلية شني حرباً على الولايات المتحدة ، ومن معها من رؤوس الشياطين ، ولكننا نقول لها : امتلكي ــ وحسب طبائع الأشياء ــ الآلية التاريخية ، والآلية العقلية والنفسية ، وأخيراً الآلية القانونية .

ــ الآلية التاريخية بأن تتعاملي وتعانقي أحداث التاريخ : يداً واحدة وإرادة للحياة واحدة وقلباً واحداً ، ووحدة شعورية واحدة ووعياً للذات واحداً .

ــ الآلية العقلية والنفسية بأن تحركي كل طاقاتك وأجهزتك وإمكاناتك لمقاومة هذا الحصار ، وفضحه وتعريته ، وتوضيح مثالبه وأغواره البعيدة وخطره على أمتنا .

ــ والآلية القانونية وهي الكفاح العربي الموحد من أجل القانون .

أجل فالكفاح من أجل القانون عنوان مدرسة فقهية ، تزعّمها الفقيه الألماني (إيهرنك) ، خلاصتها أن القانون ظاهرة اجتماعية ، يدخل في نظام الغايات والأهداف : وهو وليد الإرادة والكفاح المرير عبر أنقاض الحقوق المهترئة ، وأن الكفاح من أجل القانون كالكفاح من أجل الحياة ، وأن القوانين العظيمة كالانتصارات والمعارك العظيمة .

أين هي تلك الآلية القانونية التي سخّرناها من أجل القرار الغاشم؟!

إن فروع القانون كافة تتكلم على القرار المعدوم ، وهو القرار الذي يخرج على الشرعية بصورة واضحة : وصارخة وفاضحة ، وهذا الخروج يجرّده من أية قيمة قانونية ، ويهوي به إلى مهاوي درك الانعدام ، فيجعله مجرد حقيقة مادية ، يبرر لكل ذي مصلحة عدم تنفيذه .

هل تعاملت الآلية السياسية العربية مع هذا القرار على هذا الأساس؟ بالعكس فقد تضمّن قرار وزراء الخارجية العرب ضرورة الخضوع للشرعية الدولية المزعومة... فأين هذه الشرعية؟

لنعد الكرة ولنؤكد هذا الجهاز المفاهيمي ، الضمير الجمعي ، فهو المحك ، وهو الأساس لكل فعل وانفعال ، ولقد تصرف بوش وغيره منسجماً مع ضمير أمته ، ولكن هل تصرفت الآلية السياسية في الحملة ضد ليبيا منسجمة مع ضميرها الجمعي؟!

أجل انسجمت هذه الآلية السياسية مع الضمير الجمعي ، فكانت معجزات هذه الأمة : القادسية ، اليرموك ، حطين ، عين جالوت ، ميسلون ، بور سعيد ، الكرامة ، الانتفاضة العملاقة ، وكان خالد وسعد وصلاح الدين وعمر المختار وعبد الناصر ، وغيرهم من الذرى الشامخات .

والآن تجاهد هذه الأمة في تبديد قطع الظلام ، التي أخذت تحيط بها ، سواء من آليتها السياسية ، أم من النظام العالمي الجديد الوريث الشرعي للمسألة الغربية ، ذلك النظام الذي ما انفك ، كالأفعى ، يتلمّظ لثروات هذه الأمة ومستقبلها وحياتها .

ولكنّ قطع الليل هذه لن تزيدنا إلاّ تصميماً وتمسكاً بضميرنا وروحنا العامة ووجداننا العام ، وهوية هذه الأمة وتراثها وذاتها ووعيها ، وحقها في الحياة ، وانتزاع هذا الحق بالحرية الحمراء ، ورحم الله (شوقي) ، معبراً عن روح هذه الأمة ، مترجماً قيمها في ترنيمة الخلود ، على مسمع الأبدية تقديساً لملحمة الخلود ، بطل العروبة والإسلام... الشاهق عمر المختار ، قال شوقي :

ركـزوا رفـاتـك فـي الـرمـال لـواء ... يـسـتـنـهـضـوا الـوادي صـبـاح مـسـاء
يـا ويـحـهـم نـصـبـوا مـنـاراً مـن دم ... يـوحـي إلـى جـيـل الـغـد الـبـغـضـاء
مـا ضـرّ لـو جـعـلـوا الـعـلاقـة فـي غـدٍ ... بـيـن الـشـعـوب مـودة وإخـاء
جرح يـصـيـح عـلـى الـمـدى وضـحـيـة ... تـتـلـمـس الـحـريـة الـحـمـراء

* قانوني ومحامٍ من سوريا